رؤية التاريخ وإشكالية الفهم، في رواية:
" كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد: لواسيني الأعرج

الدكتور: عبد الرزاق بن دحمان
قسم الأدب العربي
جامعة محمد خيضر – بسكرة

ملخَّــص:

من المؤكد معرفيا أن الرواية العربية تجاوزت مرحلة التقليد، فلم تعد جمعا ومثيلا لمواصفات واقعية تعيد صياغة الواقع صياغة جمالية، فقد تحولت الكتابة الروائية إلى مشروع حداثي يسائل الكون والإنسان عن طريق تشكيلات سردية تعيد تأسيس المعرفة وفق مرجعيات مختلفة، هذا ما تحاول هذه الدراسة إظهاره من خلال رواية "كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد " "للروائي الجزائري واسيني الأعرج".

Abstract:

It is generally admitted that the Arabic novel has transcended the stage of imitation. This is because it aims to collect data and present it in an aesthetic way but writing a novel became a modern project looking for deep issues of the humanity's concen.

This could acheved by adopting differeut narrative techniques suiting various cultural backgrounds.

This study attenpts to explore this literary phemomenon in the novel « the book of the prince The ways to Irons door » by the algerian writer , wassini al arradj.

منذ زمن غير بعيد والرواية العربية تبحث عن موقع لها، وسط مدارات وتشكيلات معرفية قصد تجاوز صيغ المحاكاة والتوثيق النقلي الذي سارت عليه الرواية الواقعية، حين كان الإنسان مهوسا بحب المغامرة، والذهاب إلى فضاءات تخيلية تنسيه عالمه البائس، كما هو الحال مثلا في رواية (دون كيشوت دلمنشه)" للروائي الإسباني (سرفانتس) (1547 1616) ورواية " « البحث عن الزمن المفقود " للكاتب (مرسيل بروست) (1871- 1922) وضمن هذه السياقات المعرفية نمت حركية الكتابة الروائية، فتحول فعل الإبداع فيها إلى رؤية كونية تجمع في متنها مرجعيات معرفية قوامها الحراك السردي المكثف وما ينطوي عليه من أبعاد تخيلية ورموز وشخصيات وأحداث وتنويعات انزياحية، بهدف تكوين دلالات عقلية تثبت علاقة الإنسان بالذات والكون، ومن منطلق هذه السياقات، " فإن خيار الرواية العربية ليس خيارا شكليا بل هو خيار رؤية وطريقة نظر إلى الأشياء والعالم ... »" [1].

وانطلاقا من هذه الرؤية التحليلية فإن الاشتغال على عناصر الرواية يعني بصورة موجزة إعادة ترتيب الوحدات السردية في العمل الروائي، من أجل تقديم رؤية شاملة للعالم، فما ترجوه الرواية ليس نقل صورة العالم عبر مشاهد سردية، بل خلق مفاهيم ورؤى يمكن معايشتها على مستوى أخر من مستويات الواقع، وعليه فإن مقصدية الكتابة السردية لا ترتبط بالذات الكاتبة، أو بالأحرى "الروائي" كما هو ماثل في الشعر، وكل الكتابات النثرية الأخرى هي كتابة تشكلها مرجعيات ذات انسجام وتوافق بين الكاتب والمتلقي، بمعنى أن الرواية تقول العالم بكينونة خاصة، أو كما قال (بول ريكور): "« أن الحياة لا تفهم إلا من خلال القصص التي نرويها عنها "» [2].

إن تطور الخريطة السردية بكل تشكلاتها الجمالية، جعل الرواية العربية دائمة البحث عن سياقات وتخوم مجازية تلامس بشكل أو بآخر مأساة الإنسان العربي وهزائمه أمام نفسه وأمام الآخر، وكيف حمل انكساراته المتوالية، وهو يصارع واقعا مريرا، وحياتا بائسة حد النخاع .

وأمام تعقد الوضع الإنساني اقتحمت الكتابة الروائية مغاور الوعي فاستخدمت تعابير وصيغ لتعرية شجرة الذات، والكشف عن الغامض والمجهول، ومداهمة فيوضات الدهشة، فكل هذه العوالم بعثت في المتن الروائي شيئا من مساءلة قيم المعرفة، وهذا بوضع منطق الحياة محل جدل وسؤال، ليكون " النص " حينها مساهما في استحضار الصفة الإشكالية للعالم على حد تعبير (لوسيان غولدمان)* . (lucien goldman).

-" **كتاب الأميــر: مسالك أبواب الحديد:** "هي الرواية التي تحتل المرتبة الرابعة عشرة في مسيرة الروائي الجزائري (واسيني الأعرج)، وفيها اشتغل الكاتب على تقنيات سردية حديثة، منحت الشكل الروائي تميزه الجمالي والمعرفي، في صناعة متخيل سردي قادر على استثمار عناصر التراث والتاريخ والموروث الثقافي.

تناول هذا العمل الروائي مرحلة تاريخية من نضال (الأمير عبد القادر الجزائري) (1808 1883) وكفاحه ضد الاستعمار الفرنسي، وقد اشتغل الروائي على استحضار السيرة النضالية (للأمير) بدءا بمقاومة ظلم الاستعمار، إلى مواجهة بني قومه ممن لم يعرف حقيقته ونواياه والمقصود هنا أتباع (محمد التيجاني) الذي قضى عليه (الأمير) عام 1839م لتمر الرواية إلى أحداث (الأمير) وهو سجين في محبسه الفرنسي ونقله إلى قصر " أمبواز" مع أسرته وبعض من حاشيته، وخلال إقامته هذه يتعرف عليه

رجل من رجال الدين الفرنسيين وهو: (مونسيور ديبوش) Mon seigneur (dupuche) الذي كان أسقف الجزائر سنتي(1838م 1845م) فيزوره في معتقله، فيعجب بخصاله الطيبة ومواقفه المشرفة، فيعقد معه لقاءات متكررة، ولحبه للأمير يحاول جاهدا أن يسعى لدى السلطات الفرنسية إطلاق سراحه وفاءا للعهود التي قطعتها له فرنسا، وعلى هذه الشاكلة تنمو حوارية النص عبر استخدامات سردية، فيدخل الروائي شخصية أخرى في تقديم المادة السردية وهي: شخصية (جون موبي) (J mobie) خادم (ديبوش) الذي لازمه مدة حياته، وهو الذي أسند إليه الكاتب مهمة السرد عبر أحداث الرواية، لتكون المادة التاريخية حاضرة على مستوى المتخيل، إذ تمثل الروائي الكتاب الذي ألفه (ديبوش) " عبد القادر في قصر امبواز" والذي أهداه إلى رئيس فرنسا (لويس نابليون بونابارت):

« " كان الليل في آخره عندما وجد نفسه غارقا في أدق
التفاصيل التي لم يعرفها إلا جزئيا من قبل . عاد لينغمس
من جديد في كومة الأوراق والصحف المتراكمة على الطاولة
التي تحتل قسما كبيرا من الحجرة .... قرب قنديل الزيت منه
قليلا ، فجأة قفزت بين يديه وثيقة صفراء .....
كانت الخروف تركض مثل الخيول المتزاحمة . غمس القلم
في الحبر الذي صارت ميوعته أفضل مما كانت عليه ....
ثم تركه يشق البياضات في هذه الورقة..... » [3]

أراد الروائي أن ينقل إلينا الصورة الأخرى للأمير " عبد القادر الجزائري " الصورة التي لم يقلها التاريخ لتكون علامة على خصوصية حضارية وسلوكية تمتع بها هذا الرجل التاريخي من خلال مواقفه الإنسانية التي

أبهرت العدو والصديق، ومن أجل تبليغ هذه الأفكار ابتعد الكاتب عن المسار التتابعي لخطية السرد، إذ قسم عمله الروائي إلى ثلاثة أبواب كبرى: باب المحن الأولى، "باب أقواس الحكمة"، "باب المسالك والمهالك"، وجعل لكل باب مدخلا، هو "الأميرالية"، وعدد من "الوقفات"، وبناءا على هذا التصميم سارت الأحداث والمشاهد عبر تقاطعات زمنية لا تخضع لمنطق النظام، فتارة تأخذنا الرواية إلى زمن متأخر من عمر (مونسينيور ديبوش)، حين نقل جثمانه إلى الجزائر سنة 1864م وتارة تحدثنا عن مواقف الأمير عبد القادر وهو في معتقله وتحدثه مع الأسقف، وهكذا هي المحطات التاريخية تتداخل فيما بينها، عبر تنويعات أسلوبية معقدة يتشابك فيها الواقع بالخيال، ويتعانق فيها التاريخ بالتصورات والرؤى .

ومن هذا الطرح نحن أمام عمل فكري يرمي بتأويلاته إلى ضفاف ومساحات معرفية تدعونا إلى شغل فراغات مهمة من تاريخنا الوطني، «إذ يتحول عرش النص في نظرنا إلى فلسفة تقودنا إلى التفكير في الذات والواقع والمجتمع والتاريخ والثقافة... »" [4] .

ــ تأويل المرجع / متاهة المعنـــى: إذا كان العمل الأدبي يشكل تصورات خاصة للمؤلف تترجمها تداعيات التخيل الحر،[5] فإن فهم لغة الخطاب يستدعي علائق ومستويات، تفكك المرجع بمفهومه العميق، وإن كانت هذه الرواية متداخلة المرجعيات، لاشتغالها على مدارات معرفية عميقة، وتجارب ذاتية يلعب فيها التناص الدور الأكبر في استنطاق لغة النص.

يتحرك مرجع هذه الرواية ، من خلال الكتاب الذي ألفه (مونسينيور ديبوش) " عبد القادر في قصر أمبواز". وهذا ما عبر عنه المشهد السردي:

يخط بريشته الأنيقة كلماته التي كانت تأتي من أعماقه،

بعد أن أصبحت سيولة المداد أكثر لزوجة وسيولة،[6]

في هذه اللحظة تتوحد مساحة الرؤية ليبدأ الراوي رحلته عبر التاريخ، فيندمج في زمن المغامرة، بحثا عن موطن للكتابة، فتستحضر هذه الصورة التاريخية، رغبة من الكاتب في تقديم قراءة أخرى لمسيرة "الأمير عبد القادر الجزائري"، وكأن هذا الاشتغال أراد تمرير خطاب تاريخي عن طريق معطيات معرفية يشترك فيها الملمح الغربي الذي ترسمه ثقافة هذا "الأسقف" الذي أحب ودافع عن "الأمير"، فهي الرغبة في الكشف عن مناطق أخرى تعيد للأمير وجهه المشرق، خلافا لما هو مختزن في ذاكرة الشعب الجزائري:

«البرد والصقيع وغشاوة الضباب التي تملأ الأمكنة وساحة البيت ..... دور مونسيور القلم بين يديه كعادته عندما تهرب منه العبارة ... وضع كفه على جبهته قليلا بحثا عن شيء ما لم يكن قادرا على تحديده فرأى الأمير طفلا يركض على حافة وادي الحمام وهو يقطع البحار والقفار مع والده باتجاه القيام بمناسك الحج وزيارة علماء القاهرة والتوقف في مقام سيدي عبد القادر الجيلاني ببغداد ودمشق والبقاء قليلا بمقام ابن عربي ... ؟ » [7].

إن هذا الطرح السردي يحمل تحويلا ثقافيا مغايرا للسائد والمألوف، كون الروائي لم يتعامل مع المادة التاريخية تعاملا توثيقيا يتيح لنا أن نفهم سيرة "الأمير" على نحو ميسر، بل تعامل مع متخيل قوامه كتلة الأحاسيس المتفاعلة مع الواقع والتاريخ ، فجاءت الطريقة السردية أشبه « بمتاهة القص التخييلي الذي يأخذ القارئ من رواق إلى آخر داعيا إياه إلى الإسهام في بناء العالم الممثل وعدم الاقتصار على تلقيه واستهلاكه.. » [8]، ولاشك أن تعدد

القصص أدخل رؤية الكاتب في متاهات من لعبة المعنى، على طريقة " ألف ليلة وليلة"، وهذا قصد تفعيل أولوية التخييل ليكون مرجعا قبل خطاب المرجع الخارجي، تقول الرواية :

« هذه الأرض لم تعد في حاجة لأي أحد
لا يعرفون أن الدنيا تغيرت وأننا على حافة عالم
في طريقه إلى الزوال وعالم يطل بخشونة برأسه
لا خيار لنا إلا أن نفهمه وننسجم مع ظروفه ، أو
نظل نغني ولا أحد يسمع أصواتنا إلا الذين نريهم الهزائم انتصارات
دائمة ..... [9] .

إن هذا التصوير يتجاوز منظومة الماضي، ليلامس الراهن أو الحاضر الذي فقد الكثير من التصورات الموضوعية للتاريخ، فالواقع الثقافي للإنسان ألزمه تبني موقف عدائي للآخر (الغرب) وهو موقف فيه الكثير من المغالطات والإجحاف في حق الإنسانية، ولهذا تحول "الأمير" إلى رمز إنساني يملك شؤون الحوار ،تمثلت فيه صورة " المثقف الذي عاش عصر تحول في القيم، وأراد أن يجد لبني قومه موقعا مشرفا فيه .." [10] :

«" لو يفتح قلب البشر قليلا نحو النور، أتمنى
أن يوضع قبرانا جنبا إلى جنب ... قد يبدو
ما أقوله لك مجرد حلم، وربما احتجنا إلى
زمن آخر أقل حقدا ولكن هذا ما أحس به الآن [11]

إن المعنى الجوهري لمثل هذه السياقات السردية ،يتجاوز حدود اللغة والأفكار، إذ ليس المراد هنا تثبيت جانب مهم من سيرة " الأمير عبد القادر الجزائري"، فهذا أمر تقوله كتب السير والتاريخ، بل المعنى المؤكد في هذا

المقام هو فهم الوضعية الإشكالية للروائي، كونه كائنا إشكاليا[12] يتغذى من كتلة الأحاسيس والمشاعر القارئة للكون والإنسان، وهذا ما يجعل "المعنى" مدارا هلاميا يصعب ومسكه، وبخاصة إذا تورط القارئ مع متاهات السرد وأطياف الخيال، فيجد المتتبع لهذا المتن الروائي نفسه موزعا بين حقيقتين: حقيقة الخطاب التاريخي المرتسم في الذاكرة الجماعية، ونعني هنا (تاريخ وسيرة الأمير عبد القادر) وخطاب الذات المتصدي لكل أشكال التبعية الفكرية والهيمنة الإيديولوجية، وهذا ما أكده الأستاذ الباحث (أحمد يوسف) * في نظرته لتشاكلات السرد والإيديولوجية في هذه الرواية، إذ خلص، إلى أن (ديبوش) نفسه يشكل مؤشرا إيديولوجيا يناهض الفكر الاستعماري وهذا من خلال دفاعه عن الأمير، فكل منهما يحمل فضاء روحيا ومعرفيا يدل على قناعات معرفية مطلقة، ومن هنا تتموقع رؤية الرواية، وتتضح معالمها البعيدة، والمتمثلة في خرق حجب التاريخ والرغبة في تجاوز السائد، وأن الحقيقة مستعصية متأبية لا يدركها المرء إلا بعد الحفر في طبقات المعرفة، وما ذهاب الروائي إلى التاريخ إلا مظهر أساسي من مظاهر بؤس الحاضر ،وخواء الذات وغربتها. إذن نقول: إن حوارية الرواية ودخولها متاهات تاريخية جعلت متعة السرد فيها تستحضر محطات جد هامة من جماليات التاريخ ،المنسجم مع مرجعيات الواقع والمتخيل، فالرواية من هذا المنحى بددت التمثيل الأحادي للتاريخ، فجعلت للحدث التاريخي مساحات إنسانية تنسجم ومعاني النبل والتضحية، من منطلق أن الإنسان لا يكتمل عمقه إلا بوجود الآخـــر:

" روحك أنت غالية علي ، ومستعد
أن امنح دمي لإنقاذها .... امنحني

من وقتك قليلا لأتعرف على دينك ....

وإذا إقتنعت به ،سرت نحوه اندهش مونسينيور من كلام الأمير

فقد شعر كأن شيئا كان يعتمل في داخله .... [13]

حافات التاريخ / إشكاليـــة المعرفة: في هذا العمل الروائي يبدو الاشتغال على التاريخ أمرا صارما، إذا ما نظرنا إلى الطريقة العلمية التي صاغ بها الروائي رؤيته ومنهجه السردي في تناول الأحداث والمواقف التاريخية، ذلك أن الرواية "بمرجعياتها المتعددة واللاشعورية والواقعية تخضع في تكونها واشتغالها لأطر الإدراك، ولأنماط المتخيل بمختلف تشعباته[14] وهذا ما يؤطر عناصر الأسلوب بتنويعات لغوية ومفارقات انزياحية، جعلت الروائي يعتمد في عمله هذا على ثلاثة رواة، بثلاث روايات متداخلة: الراوي الأول يتمثل في الكاتب، وهو الراوي العليم الذي يروي قصة (جون موبي) خادم القس والأب (ديبوش)، والذي عزم على تنفيذ وصية سيده، بأن يدفن في الأرض التي أحبها (الجزائر):

" وأن تزرع تربتي في البحر فجرا، فقد غادرت

تلك البلاد في حالة جوع منها وأنت تعرف جوع

المحب،لا يشفيه إلا الموت أو اللقاء المستحيل " [15] ....

والراوي الثاني هو (جون موبي) وعن طريقه نتعرف على لقاء (القس) (بالأمير) وما دار بينهما من حديث متشعب، أما الراوي الثالث فيتمثل في القس (ديبوش) والذي يروي قصة الأمير وسيرته في النضال ضد الاستعمار ومواجهته لبني قومه..

نلحظ من خلال هذا التقسيم الإستراتيجي للرواية، أن الروائي عمد إلى تكسير الاتجاه المنتظم للسرد فجاء الزمن دائريا متشعبا،لا نشعر فيه بثقل

المادة التاريخية، على نحو ما نقرأ في الروايات ذات القيمة التاريخية، (كرواية التاريخ، على سبيل الذكر...)، وتأكيدا لهذه المواصفات يأخذ هذا المشروع الروائي بعدا وطرحا آخر بعيدا كل البعد عن فكرة "إعادة قراءة سيرة الأمير عبد القادر الجزائري" ضمن ضوابط التاريخ والمرجع التوثيقي العام، أو كما قال الكاتب نفسه في الأوراق الأولى من الرواية: " أن التاريخ ليس هاجسها .... " فما الهدف المقصـــود، إذن من وراء هذا النسيج الروائـــي ؟؟؟ ... فليكن تفكيك العنوان، هو بمثابة العتبة الأولى والمدخل الدال على كثير من التأويلات والإيحاءات، فـــ"كتاب الأمير" صياغة تعبيرية تعكس المضمون الذاتي للكاتب كونه يمتلك موقعا خاصا في تقديم " الأمير" تقديما متميزا يخرجه من سكونية التاريخ، إلى فضاء القراءة الأخرى المتسلحة بالمشاعر الجمالية والرؤى العميقة، لأن دلالة (كتاب) لها وقع خاص على القارئ الحصيف، الذي يدرك ــ على التو ــ أنه أمام وضعية معرفية يمتلكها المؤلف تستحق وعن جدارة أن تخترق حجبها، فتزداد أشواقه لوعة لمعرفة خبايا هذا الكتاب، وهذا بدوره يؤكد الميزة المتعالية للمؤلف (بالكسر)، المتفرد، بوصفه ذاتا، قادرة على ضخ المعنى، في المقولات التاريخية الماضية، وإعادة تركيب التصور التاريخي للفرد والمجتمع، قصد تمثيل الحقيقة من وجهة نظر مغايرة تماما للمألوف والمكرس، وهذا قصد "إزاحة النقاب عن ذلك الجانب المستتر في حياة تلك الشخصيات بحيث يمكن القارئ من فهم الناس في الرواية [16] وتزداد معالم العنوان وضوحا، إذا استوعبنا جيدا العنوان الفرعي: "مسالك أبواب الحديد " فنفهم منه وضعية الأمير وهو سجين السلطات الفرنسية، وفي الوقت نفسه نستوعب الدلالة الأخرى لكلمة "مسالك" التي توحي بتشعب وتعقد الحقيقة التاريخية المحاطة

بالأمير، وهي نفسها مسالك السرد المتنوعة، والتي أربكت كاهل السارد، فجعلت رؤية الأمير تتجاوز السجن المادي، إلى سجن المعرفة، سجن العرفان والمقامات الروحية، وبفضل هذا السمو يتحول هذا السجن إلى محطة وجدانية ذات أحوال باطنية، رسمت للأمير انطلاقة جديدة تمثلت أساسا في حواره الشيق مع الأسقف (ديبوش)، ومن هذا المنحى الدلالي للعنوان نفهم أيضا بعضا من التلميحات السيميائية المشتغلة على العنوان، فداخل المتن السردي اتصف الأمير بالسكون فلم يعهد له الكاتب مهمة الحكي فقد جعله السارد شخصية مفعولا بها بدل أن تكون فاعلة، وهذا ما لا نعرفه عن "الأمير عبد القادر" مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة وهذه الخاصية تقابل الشق الأول من عنوان الرواية، ليأتي الشق الثاني وفيه تتصف الأحوال السردية بالتنوع والثراء، وهذا بدوره يجعل شخصية الراوي (ديبوش) ذات مكانة فاعلة في تفعيل حركية السرد النابعة هي الأخرى من الوضعية الاجتماعية التي يوجد عليها الروائي لحظة دخوله زمن الكتابة، أو زمن المغامرة، وهنا تنسجم الرؤية السيميائية مع دلالة كلمتي (كتاب) و (مسالك) لتدلا على ثنائية الصراع بين "الأنا و"الآخر"، ولعل هذه القراءة النسبية توضح مدى عمق وتشعب الظروف التاريخية التي صاحبت هذه الشخصية الوطنية فليست السيرة هي المقصودة في هذا المقام السردي، بل المقصود استدعاء وضعيات تاريخية متأزمة، قصد فهم الراهن الثقافي الذي نعيشه بشيء من الحسرة والألم.

فالرواية من هذا المنظور، لا يمكن، بأي حال من الأحوال فصلها عن مجموع السياقات التاريخية، كونها استلهمت الخطاب التاريخي، فوجدت فيه متخيلا سرديا قادرا على حمل أزمات العصر، وقضاياه المصيرية، فعن

طريق التاريخ نفهم جيدا المعنى أو الرسالة المراد تبليغها من وراء هذا التشكيل السردي، فذهاب الرواية إلى التاريخ يضعنا ضمن تصورات جد حيوية تحيلنا مباشرة على حاضر وواقع مر، ووضع مربك، يعاني فيه الإنسان من كسوف معرفي وتشويش على مستوى الذاكرة والفكر، إذ يتحول الماضي إلى كينونة خاصة تحركها معرفة الحاضر، الذي هو نتاج ما مضى، و فهم التاريخ أمر مستحيل على المرء ما لم يحدد صلته بالحاضر..[18] ضمن هذا الخطاب الروائي تتجلى الإمكانات السردية الواصفة للواقع والراهن، ليكون(الأمير عبد القادر) معطى تراثيا وخطابا معرفيا موسعا يرحل إليه الراهن المتعثر والمأزوم يرى فيه الكاتب الصورة المثلى للإنسان الكامل، الباحث عن الجوهر الفرد، الواصف بالعبارة والشاهد على عمق الإشارة، .. هي إذن محطات أخلاقية يرى الروائي من خلالها واقعا كئيبا تنعدم فيه معاني التسامح والنبل:

" كنا نظن أننا الوحيدون الذين ينظر الله
إلى وجوههم يوم القيامة، و أن الجنة حكر
لنا وأن الله ملك للمسلم ، وكلما تعلق الأمر
بالآخرين، أنزلنا عليهم السخط والمظالم....، عندما
كان الناس يحفرون الأرض ويستخرجون التربة
ويحولونها إلى قطارات بخارية وسفن حربية،
وسيارات، وقوانين تسير البلاد كنا نحن غارقين
في اليقينيات، التي ظهر لنا فيما بعد ضعفها، وأننا كنا
نعيش عصرا .. انسحب وانتهى ..... " [19] .....

فمضمون هذا الخطاب يعكس في دلالته العميقة، وضعا سوسيولوجيا معقدا لم يصل فيه الفرد بعد إلى استيعاب الآخر، وإدراجه "ذاتا" يمكن لها أن تكون مفتاحا لفهم العالم والإنسان، وبهذا المنظور يتجاوز السرد لحظة التوثيق التاريخي لتتحول اللغة الحوارية إلى مجموع كلي من الدلالات والإيحاءات، نعثر عبر أطيافها على مساحات مرجعية تؤكد، قلق الذات الكاتبة ومحنتها من وراء التاريخ، من وراء نص الحيرة ..

"لم أرك ولكن من رسائلك عرفت أنني أمام رجل كبير
لم يفهمه الفرنسيون والعرب معا، البارحة قضيت
الليلة بكاملها أعصر دماغي ووثائقي عبثا ولم أجد جوابا
مقنعا لقصة النسخة الخفية من معاهدة دوميشال .... [20]

إنها الحالة الوجدانية التي غالبها التشظي والضياع الزمني، فلا تجد غير هذا السامق الواقف خلف التاريخ، والقابع بأشجان المعرفة والروح، والذاهب إلى أدراج الغيب والمستحيل، لتتربع حكاية "الأمير" على فيوضات مأساوية تسترجعها الرواية كذاكرة حزينة، تلملم بقايا الذات وتصدعها أمام مبنى التاريخ، فلا ضير إذن في أن تتحول هذه المغامرة السردية إلى غربة الذات الكاتبة الباحثة عن اليقين خارج منظومة الواقع، فتحضر تجليات "الأمير عبد القادر بن محي الدين) ويحضر (ابن خلدون)، و(التوحيدي)، و(ابن عربي)، لتشكل هذه المنعطفات المعرفية مرجعا تراثيا يختزل في أعطافه، منظومة "الإيمان التي أراد الكاتب توطيدها بصورة مغايرة تختلف تمام الاختلاف عن صورة الإيمان السطحي والزائف، والمكرس في زمن الكاتب:

كنت أريده مسيحيا يخدم رسالة المسيح العالية

وكنت مستعدا أن أرحل بصحبته إلى البابا لتعميده يصير واحدا منا .. ولكنه كان أقوى من أن يكون رجل دين واحد ، فقد كان مسلما في قلب كل المعارك الكبرى لمصلحة الإنسان ..... (21)

إن اشتغال السرد على محاور التاريخ، يجعل الرواية أكثر مرونة في توظيف الأحداث والمواقف والسلوكات البشرية، بل أكثر جرأة من المؤرخ، يقول الروائي(واسيني الأعرج) في بعض من تصريحاته: "... إذا كان التاريخ لا يملك ربما جرأة هذه الرؤية بحكم ضوابطه المنهجية، فأعتقد أن الرواية كمجال للحرية القصوى ... تستطيع الرواية أن تتأمل هذه الظاهرة وأن تحفر فيها بشكل عميق ..... " (22) .

والسؤال المؤكد في هذا السياق: هل استطاع هذا العمل السردي تمثيل التاريخ في جانبه المقموع؟؟

من العسير جدا وضع تصنيف خاص لهذه الرواية، انطلاقا من متاهات التأويل وتحولات السرد، ومن الصعب أيضا القبض على أطياف المعرفة المندسة خلف المرجعيات والأفكار وانزياحات المعاني، وتشعبات التناص، وصراع الخطابات، كون هذا العمل الروائي تتداخل فيه هواجس التاريخ، المتناغم وتخوم الكتابة الروائية ..

اتبع الروائي استراتيجية سردية صارمة، كان حريصا فيها على ضبط المادة التاريخية، حتى لا يحيد عن معقولية ومنطق الموضوعية التاريخية، ثم تدرج في معايشة قصة (الأمير عبد القادر) معايشة وجدانية، نقلته عبر تخييل توسعي إلى رؤية سردية متفحصة لأحوال العصر والواقع، إذ تتموقع إيديولوجية القيم كمرجع معرفي، أسس خطابا ثقافيا، غير قادر

على احتواء الآخر والتواصل معه، بكيفية تتناغم فيها القيم الإنسانية والروحية، وهذه هي الرسالة الحضارية التي أراد الكاتب تبليغها من وراء هذا المشروع السردي:

ليس أهم من وجهك وقلبك الطيب
قل للأمير بأني أحفظ له هذا الخير
ما دمت حيا . وأتمنى أن يمنحني الله مزيدا
من القوة لإشاعة المحبة بين الناس .... (23)

إن انفتاح السرد على هذه الرؤية الواقعية جعل مواصفات الحوار الذي دار بين (الأمير عبد القادر) والقس (موسينيور)، يأخذ بعدا حضارية نستخلص منه مثالا حيا في تحاور الأديان والثقافات، ولا سيما في زمن طغت عليه الدغمائية والتعصب الديني بين الشعوب، وهذا ما جسدته السياقات اللغوية والأسلوبية المشكلة عبر جسد النص الذي تعايشت فيه الخطابات واللغات، والنصوص ، :

" تعرف يا جون، كلما صعدت إلى هذا
الجبل شعرت بسعادة غامرة. من هنا خرج
الرجل الذي دوخ الدنيا بحكمته وكرمه. وسعيد
أني كنت قليلا وراء فرج كربته تعرف ما معنى
المنفى؟ ما معنى أن يفقد الإنسان أرضا أحبها
لا بد أنك تعرف ذلك، تراجيديا الأمير ليست
الهزيمة، في الهزيمة يمكننا أن نقبل الآخر
ويكفيه فخرا أنه قاوم قرابة العشرين سنة .... " (24)

إن مثل هذه المواقف بإمكانها صناعة متخيل معرفي، يستدرجنا إلى فهم "خيبة التاريخ الذي ارتبط بالمركزية السلطوية ولم ينصف الأبطال الحقيقيين "[25]، فلم تعد قصة (الأمير) مقصدا فكريا ضمن أطروحات السرد، أو تمريرا لخطابات سياسية واجتماعية، إنها فضاء مفتوح لقراءة الذات المنكسرة من وراء انحرافات التاريخ وانزلاقاته.

ولما كان التاريخ عاجزا عن الإلمام ببعض الأسرار والخفايا، فإن الأخبار تستعين بروح القصة لتقتحم المجاهل بلا تهيب. فإذا عجز التاريخ عن اكتشاف وثائق أو شواهد لأصل الحياة وانبجاس الوجود، ففي الخيال فسحة لتصور ذلك من خلال سياحة فنية مصاحبة، للتاريخ تجيب عن أسئلة يعجز هو عن طرقها .." [26]، فما استحضره الروائي من إمكانات سردية هو في حقيقة الأمر رفض للواقع السائد، عن طريق إعادة تشكيل معطيات معرفية أخرى، تكشف عن جوهر الصراع داخل المجتمع البشري، فصورة (الأمير) وهو يحاور القس(ديبوش) تعكس في أبعادها قيمة العنصر الروحي والوجداني، في تجاوز المحن، فليس المهم في هذا المقام أن يبحث أحدهما عن السند الروحي، بقدر رغبة الكاتب الباحثة عن اليقين الديني والروحي من وراء هذا الحوار، إذ جعلنا الراوي نقرأ حقيقة (الأمير) من خلال صورة القس، ونقرأ أيضا صورة القس من خلال شخصية (الأمير) وهكذا تتفاعل المشاهد السردية، من وراء هذا اللقاء التاريخي الذي لم يستطع التاريخ إظهاره ولا حمله على وجه الحقيقة والتمثيل، تقول الرواية:

" الجمال خلقه الله للرجال والنساء
ودِيننا ودينكم لم يعملا إلا على
تهذيب العلاقات بدون إقصائها. هل

هذا يكفي أم أضيف شيئا آخر ... .
شكرا يا سيدي ، يكفي لهذا اليوم. كلامك
طيب ومقنع ..... (27)

فالتلوين السردي المختفي وراء عنصر السيرة، نراه ينازع إشكالات الرواية المناهضة للتوثيق والإخبار المباشر، قصد تشييد وبناء الواقع الموضوعي الذي يحلم به هذا المتن الروائي، وبهذه الرؤية، فإن دمج المستوى الأسلوبي ضمن آفاق الرؤية السردية، هو ما يمكننا من فهم واستيعاب هموم ومعاناة البطل على مستوى السرد، ومعاناة (الأنا) الكاتبة على مستوى الواقع، وهذا يعني تعالي مقصدية الكاتب في تمرير خطاب "حوار الثقافات" وترسيخ رسالة "القراءة الحداثية للتاريخ " ولن يكون هذا إلا بفهم الآخر، وجعله منطلقا لفهم أنفسنا.

الهوامش :

1- فخري صالح: في الرواية العربية الجديدة ، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2009 ط 1 ص 15.

2- ديفيد وورد: الوجود و الزمان والسرد: فلسفة بول ريكور، ترجمة وتقديم سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، 1999 ط1 ص 32 .

ينظر: lucien goldmann : pour une sociologie du roman, editions gallimard(idées) 1964 paris p : 33/34

3- واسيني الأعرج: كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد، دار الآداب، بيروت، لبنان 2005 ص 252.

4- أحمد يوسف : تضايق السرد والإيديولوجيا ، أعمال الملتقى الخامس للنقد الأدبي في الجزائر، قسم اللغة العربية وآدابها ، 16/15 أفريل ، 2008 ص 257

5- رومان إنجاردن: العمل الفني الأدبي ،ترجمة أبوالعيد دودو، منشورات مختبر الترجمة والمصطلح ، 2008 جامعة الجزائر ، ص .53

6- واسيني الأعرج: كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد ص 253.

7 – واسيني الأعرج: كتب الأميرمسالك أبواب الحديد ، ص .62

8- محمد القاضي: الرواية والتاريخ ، دراسات في تخييل المرجعي ، دار المعرفة للنشر تونس 2008 ط1 ص .152

9- واسيني الأعرج :كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد ، ص 223 / 224

10- محمد القاضي: الرواية والتاريخ:ص .156

11- واسيني الأعرج : كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد ،ص 245/ .246

12- lucien goldmann pour une sociologie du roman editions gallimard 1964 Paris p 56

- ينظر: ينظر: أحمد يوسف: تضايق السرد، والإيديولوجيا ،أعمال ملتقى المركز الجامعي سعيدة 16/15 أفريل 2008، الأدبي والإيديولوجي في رواية التسعينيات ص 240.)

13- واسيني الأعرج: كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد ص 51..

14- أحمد اليبوري: في الرواية العربية التكون والاشتغال ، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء المغرب 2000 ط 1 ص .34

15- واسيني الأعرج: كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد ، ص .616

16- سعيد يقطين: الرواية والتراث السردي ، القاهرة، 2006 ط1 ص 169.

17- نضال الشمالي: الرواية والتاريخ، بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1 2006 ص .131

18- ينظر هذه الفكرة: في: georges lukacs le roman historique editions payot paris 1965

19- واسيني الأعرج : كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد ، ص 591.

20- الرواية: ص .148

21- الرواية: ص 615.

22- ندوة: الرواية والتاريخ، الدوحة، قطر 2005 (حوار مع الكاتب واسيني الأعرج).

23- واسيني الأعرج : كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، ص .57

24- الرواية :ص .615

25- حسين خمري : فضاء المتخيل ، مقاربات في الرواية , منشورات الإختلاف، 2002، ط1 ص 149.

26- عبد السلام أقامون: الرواية والتاريــخ، اطروحة دكتوراه جامعة محمد الخامس الرباط، شعبة اللغة العربية 2001/2000 إشــراف: أحمد اليبوري، محمد مفتــاح، ص 73.

27 - واسيني الأعرج: كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد ، ص 501.